

الفرنكفونية واللغات الأدبية المحلية

□ عبد الكبير الخطيبي

ترجمة: فريد الزاهي

الفرنسية بوصفها لغة حب

لكن لنبدأ من الحاضر بغية دراسة الماضي. لننطلق من الواقع العيني للفرنكفونية، ومن خلفيتها اللغوية المحلية. إن بلدان الفرنكفونية بكاملها تعيش ازدواجاً لغوياً من نوع خاص، هذا إذا لم تكن تعرف التعدد اللغوي. ففي كل مكان، هناك علامات شاهدة على التمازج والانقسام اللساني والرواثة، وعلى التراتبية بين اللغات المحلية.

وأنا، بوصفي كاتباً مغريبياً، لا يمكنني الصمت على واقعيتين مهمتين^(١).

- فالتكوين اللساني الفعلي في المغرب عربي وبربري، فرنسي وإسباني ولو بشكل هامشي، من جهة؛

- أما من جهة ثانية، فاللسان العربي مزدوج اللغة، إذ هو موزع بين تقليدين اثنين، يعود أحدهما إلى الذاكرة المكتوبة، فيما يعود الآخر إلى الحكاية الشفوية.

هذا هو ما يفسر احتواء المغرب أربعة أداب متوازنة. أحد هذه الأداب مكتوبة بالعربية ويحيل على الأمة للعربية الإسلامية (وليس عليها وحدها) وجينالوجيتها النصية. والثاني يسري ويترحل بين الشعر الشعبي والخرافة، والغناء، والممارسة السحرية والصوفية، نظراً إلى كونه مصوغاً بالعربية الشفوية، ولم يحظ بالتقييد والكتابة. أما الأدب البربري، وهو الأدب الأعرق والأقدم، فهو بالرغم من كونه خضع للحجب، يترحل أيضاً بين فضاءات ثقافية مختلفة من الثقافة الشعبية. وأخيراً هناك الأدب الفرنسي اللغة، وهو ذو جينالوجيا مزدوجة. فليس من الصدفة أن يكون الكتاب المغاربيون أسرى السيرة الذاتية؛ ذلك أن الكتابة بلغة أجنبية تشكل طريقة لتأسيس مشروعية فعل الكتابة.

منذ مئة يدور الحديث لا عن الأدب الفرنسي في وحدته، وإنما عن الآداب الفرنكفونية. وهذا الرأي يفترض وجوداً فعلياً للتعدد والاختلاف في اللغات الأدبية المحلية. إنها تعددية ذات منحى نشيط، ذلك أنه لا يمكن وجود تجربة عالمية وثقافية شاملة من دون وجود أعمال تتشكل في حوض هذه اللغات المحلية، كلاً على حدة. ولنا الحق في طرح سؤال أول: هل هذه التسمية (اعني الآداب الفرنكفونية) مجردة تحصيل حاصل، أم أنها تعيش وضعية جديدة كلية وجوهريّة، وضعية قد تعرض للخطر لا الأدب الفرنسي وحده وإنما، وبصورة أكثر جذرية (اعني الجذور وتباين الجذور)، اللغة الفرنسية في مبدأ هويتها؟ إننا نأخذ هذا التعبير الأخير في بنيتها اللسانية والثقافية والسياسية (الوطنية والدولية)، من دون أن ننسى البعد الإعلامي الذي غدا دوره راسخاً بشكل متزايد. لذا سيكون هذا المجموع الهيكلي، الذي يملك هذا الحد أو ذاك من الصلابة والانسجام، أحد محاور حديثنا.

يبدو في تحصيلنا الأولي أن تسمية «الآداب الفرنكفونية» تعني أن في تعددية اللغات المحلية نموذجاً مرجعياً هو الأدب الفرنسي في مبدأ هويته. إنه مبدأ سوف تلتحق وتلتصق به لغات محلية أخرى (مكتوبة وشفوية): اللهجة اللابونية والرومندية والكندية والمغربية، ولغة الكريول، من دون أن ننسى اللهجة البروطانية والكورسيكية، ومجموع الخاصيات اللغوية التي يضمها التراب الفرنسي. إنه هذه اللغات المحلية، مثلاً في تلك مثل مجاز الشجرة، تزهو كما لو كانت قد استنبئت حول هذا النموذج المرجعي، أي حول مبدأ الهوية ذاك، الذي حده الشاعر الفرنسي إيف بونفوا «باعتباره قاعدة تسعى نحو المطابقة بين الواقع والعقل، وتمكن من تفادي الشك في كون اللسان يعكس، وبقوة، وفي بنيته نفسها، هذا المعقول intelligible»^(٢).

١ - انظر L'improbable et autres essais (اللامحتمل وأبحاث أخرى) غاليما ١٩٨٠، ص ٢٦٠.

٢ - انظر كتابنا Figures de l'étranger (صورة الأجنبي في الأدب الفرنسي) دونويل ١٩٨٧، ص ١٠.

يَقترح دويوصي خلق توجُّه جديد للفرنكفونية
يتماشى مع مبدأ احترام تنوع اللغات المحلية،
ومبدأ عالمية متعدد الأقطاب

والتسجيل القيمي في الجمارك، وله كذلك حراسته وتخزينه وطابعه، هذا من دون أن ننسى الإصدارات الخاصة الهادفة إلى إحكام الطوق. فلكل عنصر في الحب محاسبه. وأن نحب، ولو جزئياً، مسألة تتطلب التبصر والتفكير. وهو سر لا يخفى على أحد، فبإمكانه أن يخضع للتدبر، إذ هو يملك اقتصاده الطقوسي المتوارث أباً عن جد.^(١)

ونظراً لتملك الكاتب لغة حب مستقاة من تقليد أجنبي، فسوف يكون مضطراً إلى ممارسة الازدواج اللغوي. هكذا سوف يجد نفسه في بلده الأصلي يتكلم أحياناً لغة ويكتب بأخرى، في اليوم نفسه. فالازدواج اللغوي، سواء كان معيشياً بشكل نشيط أو بشكل يُنتج الغموض، يمكن الكاتب من كشف آخر؛ فهو يُترك في آخر المطاف أن لغته ليست لغة أمّا ولا لغة أبّا. وأنها، بوصفها تجربة كتابية، لغة غير شخصية غير شخصية؟ نعم، وبمعنى مزدوج: فاللغة، من جهة، لا تنتمي لأحد؛ وهي، من جهة أخرى، تُفقد قناعتها باعتبارها حيازة من قبل مجموعة أو بلد مهيمين للخيرات الرمزية التي تتبادلها. إن الأشخاص تلك تشكل يونانياً الكاتب، أو بالأحرى منفاه. أمّا على أرض الواقع فالأشياء تكون أكثر تعذراً على التناول. فالكاتب الذي نحاول هنا رسم صورة له يحس أنه قد تعرض، بشكل أو بآخر، لفقدان جزء من ذاته. إنه يحس نفسه هامشياً فيما نعتبره حساساً وشغوقاً بفرسا من غير أن يكون كذلك، ومن غير أن يكون مطابقاً لذاته أو فرنسياً حقاً. لذا فهو يتعرض لإنكار وتجاهل مصححين أحياناً بالحماية.

ما الذي نعانیه في الفرنكفونية؟ وبإية شكاوى يتعلق الأمر، خصوصاً إذا نحن انطلقنا من المعنى الأصلي للفعل الفرنسي *douloir* الذي اشتقت منه كلمة *dolérance*: شكوى - عتاب؟

فالكاتب باللغة الفرنسية يقول في البدء: هذه هي ولادتي، وذلكم اسمي، وهذه أرضي، وذلكم قلبي الذي لا يتبض إلا لكم. إنه ينظر إلى هويته وهوية شعبه عبر ما يُشبه إثنولوجيا أدبية. كلما توغل في هذا المسار اكتشف محاسن الغربة والاضطرابات التي تخلفها. فيمقدار ما تعيد اللغة الفرنسية بُنية اللغة الأم، ينصاع الكاتب للغة الغواية هذه. إنها غواية الكلمات وهي تنظم فيما بينها في لغة حب تحافظ على قواعد اللبابة.

يحيى ذلك الكاتب بمفارقات لغة الحب هذه (الآتية من مكان آخر ومن ذاكرة أخرى)، من غير أن يتمكن من تطويرها وبلورتها. ليس مطالباً بتغيير جينالوجيته النصية من خلال التماهي مع هذا الكاتب الفرنسي أو ذاك؟ وفي الوقت نفسه، ليس هذا التعويض في صلب الذاكرة خطأ، ووعداً بحرية لا تُضاهى؟ اليس فعل القطيعة مكثفاً من مكوثات كل فعل أدبي جديد؟ فقط، ينبغي صياغة الأشكال، وإبداع واستكشاف ما ظل صامتاً في لغة الحب هذه. ويأتي اليوم الذي يُحسن فيه هذا الكاتب أنه غداً متأكد إلى حد ما من إمكاناته، ليمتلك اللغة الفرنسية. إنه يقوم بذلك على طريقته الخاصة، وغالباً بجموح عارم. هكذا يبدو أن شيئاً ما جديداً ينبثق من أعماق ماضٍ إعجازي. إنه شيء جديد وغير قابل للتحديد. ربما كان ذلك هبة من لغة ما، هبة سوف تكشف لهذا الكاتب النزق أن كل لغة خاضعة لقوانين تجارية. «لكن ما الذي يتفاوض الكاتب بصده مع رفيقته في الحب؟ أهو جسدها، أم روحها، أم نفسها؟ الحب، كما البك، مسألة كتابة وترجمة للقيم التبادلية؛ فلحب اقتصاده أيضاً من تمويل واستدانة وتسديد وتخفيض وعجز وصرافة. وله كذلك حقوقه المكتسبة في العقار التجاري، وحق التملك المؤلم، وحق امتلاك الأسهم، وحق المتعة

١ - انظر *Nouveaux discours sur l'universalité de la langue française* (خطابات جديدة حول عالمية اللغة الفرنسية)، غاليمار ١٩٨٨.

الفرنكفونية واللغات الأدبية المحلية

عن القومية والعالمية في الأدب

عادة ما نقول إن وطن الكاتب هو اللغة. فهل يوجد إذن، في ما وراء تعدد اللغات المحلية للفرنكفونية، وطن أدبي، أو بالأحرى وطن مشترك trans-nation يكون القلب النابض للفرنكفونية؟

لقد قلّم تيري دوبوسي Th. de Beauce، بوصفه كاتباً ووزيراً في الحكومة الفرنسية، جواباً ممكناً عن هذا التساؤل. ففي كتاب عنيف، يحلّل دوبوسي الفرنكفونية باعتبارها لساناً عالمياً بقوله: «نظراً لدعوى العالمية التي تتمتع بها اللغة الفرنسية، بوصفها اللغة الأقوى، يتحتم عليها إعطاء الملّ في المقاومة، وتحديد الاستراتيجيات المشتركة الجبيرة بحماية التعددية». فحين يقال إن اللغة الفرنسية تغني فرنسا، يتم الخلط بين مصالح الشعب والدولة ومصالح تعبير لسانيّ معين. والحال أن مناخ اللغة الفرنسية ليس مناخ فرنسا قط، مع أن فرنسا تقوم فيه بدور خاص وفريد. وذلك هو المنحى الذي ستأخذه مداخلتنا بدورها.

يتنامى انتشار اللغة الفرنسية في العالم بوتيرة أقل من وتيرة تعميم اللغة الانجلواميركية الذي يساير التجارة والتقنية. يقترح الكاتب، إزاء تقنية الصداقة المهيمنة هذه، خلق توجه جديد للفرنكفونية، وذلك تبعاً لاستراتيجية غير دفاعية هذه المرة، وإنما مرنة ونشطة ومتماشية مع مبدأ مزدوج: مبدأ احترام تنوع اللغات المحلية، ومبدأ عالمية متعدي ومتعذر الاقطاب. هكذا ينتهي وهم المركز، والمركز العرقي، الذي يتحكم في الحضارة الفرنسية، في اندماجها وتوحيدها حول موقع جغرافي معين ودولة وإيديولوجيا محدّتين: إن فرنسا هذه يتعتها المؤلف بالاستبدادية.

ولكن لكي يغدو مبدأ الفرنكفونية هذا فاعلاً، يتطلب الأمر وجود قواعد لعبة بين الأطراف المعنية تكون شفافة بما فيه الكفاية. ويتطلب أيضاً وجود قوانين ضيافة في اللغة التي تنقاسمها تلك الأطراف وتقسّم داخلها. إنها ضيافة من غير محاباة، وبحث عن هوية تكون

بدورها في حالة صيرورة. فإذا ما نحن قبلنا بفكرة هوية لا استقرار لها في الماضي، فإن بإمكاننا التوصل إلى تصور أكثر صواباً لهوية في حالة صيرورة. وأنا أعني هوية تكون إرثاً من الأثوار والكلمات والتقاليد، وتتحوّل مع الزمن المصدّ لحياتنا بعضنا مع بعض ومع الآخرين. ذلك أن الإنسان الذي لا يحافظ على حياته، بفضل ماضيه المشرق وحده، يُشبه ميتاً محنطاً، أي ميتاً قد لا يكون عاش أبداً.

هكذا يتوضّح أن الهوية لا تتحدّد من خلال بنية أبدية، بل هي - حسب رأينا - محكومة بعلائق متقاطعة بين الزمن والفضاء والثقافة التي تهيكّل حياة مجموعة بشرية أو عرقية أو حياة مجتمع ما. إنها ترجمة لحركة الوجود ومرونته وتكيفه مع الأحداث، ومع طاقته الخاصة في التجدد. تعني «الضيافة» هنا إنصافاً للآخر باعتباره آخر، ومن ثم الإنصاف له من أجل التمكن من استقباله في فرادته. إنها كلمة أتية من مكان آخر بعيد، ومراس لهويتي الخاصة في تبلورها، ومراس لطموحي الخاص إلى العالمية، كيفما كنت: امسلاً بالقوة أم محروماً منها، امدعماً باستراتيجية قوة أم محروماً منها.

يتطرق الأمر فعلاً بمبدأ لتعدد اللغات المحلية. لكن لماذا؟ كيف يكون ذلك التعدد ثراء لغوياً لا فقراً في الوقائع؟ لناخذ لغة الكريول نعوضاً. إن ما يمنح هذه اللغة قيمتها هو، بالتعبير الشائع، نكهتها المحلية ونبرتها الغنائية والراقصة ومرتلانها الغرائبي، كما هو الشأن بعض الشيء مع «السكات» scat في موسيقى الجاز، باعتبار أن فعل scatter يعني تلبية مقاطع غنائية عبر محاكاة آلات تلك الموسيقى.

لكننا نعلم أن جيمس جويس، وهو من بين الكتاب المرموقين في هذا القرن، قد ابتدع عدّة لغات محلية ومن بينها لغة «السكات» الأدبية في روايته يقظة فينيغان Finnegans Wake. إن ما نقصده هنا هو أن لغة الكريول عبارة عن رطانة Pidgin أي هي مزيج من اللغات؛ وحين يأخذ عمل أدبي ما على عاتقه هذا التمازج فإنه يغدو مختبراً للإبداع الأدبي. فالكريول ليس قضية محلية

اللغة الفرنسية تكبت قوتها الشعرية كما كبتت منذ خمسة قرون تنوع لغاتها المحلية

نموذجاً ومقياس هوية بالنسبة للفرنسيين. إنه نموذج فرنسا حول مركزية البلد والدولة واللغة والدين. ولقد تم إقرار هذه الهوية من الذات إلى الذات من خلال أنظمة من القواعد الشكلية التي ماتزال تتحكم فيها، وكأنها الهيكل السامي للغة الفرنسية. غير أن اللغة الكلاسيكية، التي غدت ذات منزع إنساني منذ عصر الأنوار، تعرضت لأولى التقلبات مع الثورة الشعرية التي عاشتها فرنسا منذ بداية القرن التاسع عشر. فقد استطاع بولير، باستيعابه للغة الكلاسيكية ولأشكالها في أكثر مظاهرها الإنشائية الشهوية، أن يقود الأدب الفرنسي نحو حداثة لا مثيل لها. وحقق تلك اللغة بشكل مزدوج. ورثاً كان ذلك آخر شاعر عذري في فرنسا، متظاهراً - ويا للحيلة الكبرى! - بأنه شاعر كلاسيكي منقطع. أما أن يكون اسم ملارمي، بعد بولير، علامة على تجربة نموذجية، فهو شيء لا يفاجئ أحداً. إنه من دون شك المنظر والممارس «للشعر الخالص»، غير أننا ننسى أنه كان يملك وعياً حاداً ومولماً جداً بنهاية الكتاب الشامل le Livre. لقد كان يملك وعياً دقيقاً بالوجوه المتعددة للتقنية. ففي «رمية نرد» تكون القصيدة عبارة عن لعبة فضائية بين قراءات عديدة متراكبة على مستويات مختلفة. كان ملارمي يرغب في كتابة قصيدة ذات صياغة كالجغرافية وطباعية، قصيدة تكون هندسة للروح وسينوغرافية رؤياً وفكراً بانحاً للفراغ. إنه الأدب باعتباره اقتساماً متدرجاً للمضي، والمتم بحيث يكون الفضاء (التشكيل البصري واللوني للكلمات) مجال تجل للإيقاع. أما عن رامبو، شاعر الهجرة بامتياز، فأثنا نترك الكلمة لانتوان رايبو A. Raybaud الذي يحدد شعره باعتبار ما يمكن تسميته انشقاقاً في الحكاية. فلما كانت الحكاية تشتمل على بعض الأسس، فإن كل انشغال النص ينصب بالضبط على جره إلى الانشقاق.

إن هذا الانشقاق يشكل في نظره إمكانية استخراج وتحريك طاقة جديدة في النص... وفي هذا السياق يلزمنا فهم كلمة barbare كما يستخدمها رامبو، لا بمعنى الهمجية التي يتم الحديث دائماً

فقط، وإنما يشكل الإمكان الأصيل لكل لغة كي تتغذى من اللغات الأخرى وتثري بفضلها، وذلك من غير السقوط في الهذر أو العودة إلى الصرخات للهمجية. إن جويس، وهو الإيرلندي الأصل، لم يخش الدع بالإنجليزية، وهي اللغة الكونية، إلى حدود العي.

ومع ذلك، فإن النقد الميثروبوليتاني (الحواصري) يحتفل بجويس ويتجاهل الكريول. فالأمر يتعلق بوزنين ومكيالين. ينسى هذا النقد أن الكتابة هي ترك بصمات الصوت والعاطفة على رسوم الكلمات؛ وذلك هو تصوّرنا للادب، إذ التمازج الأول للكتابة موزع بين الصوت والمكتوب. إن كل لغة تفتن قواعدهما التعبيرية، غير أن السنن يذوي في حضرة الإيقاع.

نحن نتحدث عن الضيافة في اللغة، مع أن الواقع محدّد، حسب منطق التاريخ، من قبل التراتبية وهيمنة لغات على أخرى، وكذلك عبر تعددتها اللامتساوقة والمتباينة. وهو ما يؤدي إلى نفي اللغات وهلاكها وتشققت اللغات المحلية، وإلى العي، وإلى كتابة بعضها والصمت المحبط للبعض الآخر. إن كل هذه المكابدة تشكل أيضاً جزءاً من الفرنكفونية.

يعاني الفرنسيون التأخر الذي تعيشه لغتهم، بالمقارنة مع التعبير العالمي باللغة الأنطو أميركية. هذا في الوقت الذي يشكو فيه الفرنكفونيون من وضعهم معتبرين أنفسهم موضع تجاهل متجذر من قبل الميثروبول. لقد غدت اللغة الأنطوأميركية اللغة المشتركة العامة في جميع المجالات، الصناعية والتقنية والسياسية والديبلوماسية والثقافية والإعلامية... وقد تسرعت هذه الوتيرة لأن اللغة أصبحت وسيلة لتطوير الإعلاميات، وشفرة عديّة وتناظرية، أي تقنية إعادة إنتاج للزمن بوصفه ذاكرة اصطناعية. أما الكتاب، بوتقة للتراث المكتوب، فقد أضاع موقعه الاستراتيجي في مجال المعرفة. ويلزمه من الآن أن يكتفي بدوره كعنصر ومحطة للتواصل الإعلامي. لكن نلعد إلى اللغة الفرنسية التي حظيت منذ العصر الكلاسيكي باستمرار رائع أكيد. فاللغة الكلاسيكية لاتزال إلى يومنا هذا

الفرنكفونية مشروع واسع ومعقد وطموح، وهي بالنسبة إلى البعض شيء طوباوي. وبإمكاننا التساؤل بالفعل عما إذا كان اتباعها قد منحوا أنفسهم الوسائل المادية والثقافية لتمكينها من قواعد صلبة. أفلا يوجد بين الشمال والجنوب لاتوازنٌ بيهيّ جداً؟ ليس هذا اللاتوازن موزعاً بين احتكار البعض وفقر البعض الآخر؟ وللمهدي المنجرة الحق في التساؤل: «هل تشكّل الفرنكفونية وسيلة للعلاقات الدولية؟ وإذا كان الأمر كذلك فما هو الجديد فيها؟»^(١)

يجيب المنجرة بالسلب، واضعاً اليد على المعطيات الواقعية: كالعديد المحدود للناطقين بالفرنسية (١٠٦ ملايين نسمة)، وضعف الوزن الاقتصادي للعالم الفرنكفوني، ولاتوازن الناتج القومي الخام بين كندا وفرنسا من جهة (٨٣٪) والبلدان الإفريقية من جهة ثانية (٥،٨٪).

كثيرة هي العوائق التي تشهد على وضعيّة جد غامضة موروثه عن تاريخ استعماري طويل، وناتجة عن تفكير لا يفتأ يتزايد حدة. أين نحن الآن؟ ما هو حال الفرنكفونية بوصفها محور ثقافة واستراتيجية دولية؟ إننا لانزال في فجر التساؤل عن التقسيمات الجديدة بين اللغات، وعن سرعة التقنية وأثار التدويل déterritorialisation.

الدار البيضاء

عبد الكبير الخطيبي

من كبار كتاب المغرب الأقصى. من كتبه الحب الثنائي اللغة، والذاكرة الموشومة.

عنها، وإنما في المعنى المرجح في نهاية القرن التاسع عشر، أي تهديم النظام القائم، وتشغيل حركة طاقة معينة. إن الهمجيين هم، بهذا المعنى، الدم الجديد للذين يأتون ويدمرون روما. وهو من ثم محاولة أو، بالأحرى، تحقيق نظام جديد يكون محملاً بممكّنات جديدة.^(٢)

لقد اتينا على ذكر لحظات تخلخل عاشتها اللغة الكلاسيكية، ونحن نفكر في أن هذا التخلخل الذي استمر - وبطريقة متباينة - حتى القرن العشرين لا يزال فاعلاً سواء في فرنسا أو خارج حدودها، وكذلك في لغات أدبية محلية هي في طور التكون. لكن قد يقول قائل: عم تتحدث؟ من يقرأ الشعر الآن في فرنسا؟ إذ الشعراء هامشيون الأدب الفرنسي. ونحن نعايش المفارقة التالية: فاللغة الفرنسية تكبّت قوتها الشعرية كما كبّت منذ خمسة قرون تنوع لغاتها المحلية. غير أنها في الوقت نفسه لم تعمل بما فيه الكفاية على التحول إلى لغة نمطية standard كي تعمل على تنشيط عالميتها الأدبية، سواء في العالم الفرنكفوني أو في بلدان أخرى.

تشكّل فرنسا بلداً أوروبياً ومتوسطياً وفرنكفونياً في الآن نفسه. وتلك هي العناصر الثلاثة المكوّنة لهويّتها. لهذا السبب يعتقد الآن دوكو A. Decaux، الوزير والأديب، أن الهوية المتبلورة لأوروبا تكمن في ممارسة التعدد اللغوي^(٣) باعتبار أن هذه الممارسة ستكون في صالح التوازن بين الشمال والجنوب والشرق والغرب. هكذا يدافع دوكو عن تعليم لغتين، وعن ازدواج لغويّ يسمى ازدواج «الحوار» كمثل الألمانية في شرق فرنسا. إنها طريقة لخلق أماكن مرور وتبادل، عوض تعويق التواصل بين الناس.

١ - انظر Imaginaires de l'autre (متخيلات الآخر) لارامطان، باريس ١٩٨٩.

٢ - انظر مقاله «أوروبا وتحديّ اللغات»، جريدة لوموند، ١٤ سبتمبر ١٩٨٩.

٣ - «المغرب العربي والفرنكفونية»، مجلة Economica، باريس ١٩٨٨.